رسالة الى ابي عبد الله

احمد بن ابي دؤاد الايادي : من كلام ابي عثمن عمرو بن بحر الجاحظ كتبها اليه يخبره فيه [فيها] بكتاب الفتيا

Une autre épistole inédite de Djâhizh.

(لغة العرب) هذه تتمة الرسائل التي ذكرها حضرة الدكتور داود بك الجلبي ووصفهـا ، وهي من عين المجموعة المذكورة سابقاً .

بسم الله الرحمن الرحيم

اطال الله بقاك [بقاءك] ، واعزك ، واصلح على يديك . كان يقال : السلطان سوق ، وانما يجلب [يجلب] الى كل سوق ما ينفق فيها . وانت ايها العالم ، معلم الخير ، وطالبه ، والداعي اليه ، وحامل الناس عليه ، من السلطان بارفع المكان . لان من جعل الله اليه مظالم العباد ومصالح البلاد وجعله متصفحا [متفحصاً] على العصاة ، وعبادا [عتادا ؟] على الولاة . ثم جعله الله منزع العلماء ، ومفزع الضعفاء ، ومستراح الحكماء . فقد وضعه بارفع المنازل ، واسنى المراتب . وقد قال اهل العلم ، واهل التجربة والفهم : لما يزع الله بالسلطان ، اكثر مما يزع بالقرآن . وقد كان يقال : شيئان متباينان . ان صلح احدهما صلح الآخر : السلطان والرعية . فقد صلح السلطان ، وعلى الله تمام النعمة في صلاح الرعية حتى يحقق الاثر ، ونصدق الشهادة في الخبر ، فنسئل [فنسأل] الله الذي منحك حسن الرعاية ، ان يمنحنا حسن الطاعة . وقد نظرت في التجارة التي اخترتها والسوق التي اقمتها ، فلم ار فيها شيئاً ينفق إلّا العلم ، والبيان عنه ؛ وإلّا العمل الصالح ، والدعاء اليه ، وإلّا التعاون على مصلحة العباد ونفي الفساد عن البلاد . وانا مد الله في عمرك ، رجل من اهل النظر ، ومن حمال الاثر ، ولا اكمل لكل ذلك ولا افي . إلّا اني في سبيل اهله ، وعلى منهاج اصحابه . والمرء مع من احب ، وله ما اكتسب .

وعندي ابقاك الله كتاب جامع لاختلاف الناس في اصول الفتيا ، التي عليها

اختلفت الفروع وتضادت الاحكام . وقد جمعت فيه الدعوى مع جميع العلل . وليس يكون الكتاب تاماً ، ولحاجة الناس اليه جامعاً ، حتى يجنح لكل قول ، بما لا يصاب [يعاب] عنده صاحبه . ولا يبلغه [ينقصه ؟] اهله [أمله] ، وحتى لا يرضى بكشف قناع الباطل ، دون تجريده ، ولا بتوهينه ، دون ابطاله وقد قال رسول رب العالمين ، وخاتم النبيين ، محمد صلى الله عليه وسلم : تهادوا تحابوا . فحث على الهدية ، وان كان كراعاً و[او] شيئاً يسيراً . واذا دعا الى اليسير الحقير ، فهو الى الثمين الخطير ادعا [ادعى] وبه ارضى . ولا اعلم شيئاً ادعى الى التحاب ، واوجب في التهادي ، واعلا [اعلى] منزلة ، واشرف مرتبة ، من العلم الذي جعل الله العمل له تبعاً والجنة له ثواباً .

ولا عذر لمن كتب كتاباً ، وقد غاب عنه خصمه ، وقد تكفل بالاحبار [بالاخبار] عنه ، في ترك الحيطة له ، والقيام بكل ما احتمله قوله ، كما انه لا عذر له في التقصير عن قسام كل قول خالف عليه ، وضاد مذهبه عند من قرأ كتابه ، وتفهم ادخاله . لان اقل ما يريد [يؤيد] عذره ، ويزيح علته ، ان قول خصمه قد استهدف لخصمه [لخصمه] واصبح [واصحر] للسانه ، ومكنه من نفسه ، وسلطه على اظهار عورته . فاذا استراح واضع الكتاب من شغب خصمه ، ومداراة جليسه ، فلم يبق إلّا ان يقوى على كثير [كسر] الباطل ، او يعجز عنه . ومن شكر المعرفة ، بمغاوي الناس ، ومراشدهم ، ومضارهم ، ومنافعهم ان يحتمل ثقل مؤونتهم في تعريفهم ، وان يتوخى ارشادهم ، وان جهلوا فضل ما يسدي اليهم . ولم يضن العلم بمثل بذله ، ولم يستبق بمثل نشره . على ان قراءة الكتب ، ابلغ في ارشادهم من تلاقيهم ؛ اذا كان مع التلاقي يكثر التظالم ، وتفرط النصرة ، وتشتد الحمية ؛ وعند المواجهة تفرط حب الغلبة ، وشهوة المباهاة ، والرياسة مع الاستحياء من الرجوع والانفة من الخضوع وعند جمع ذلك يحدث [تحدث] الضغائن ، ويظهر التباين . واذا كانت القلوب على هذه الصفة ، وهذه الحيلة [الحالة] ، امتنعت من الفرقة [المعرفة] وعميت عن الدلالة . وليست في الكتب علة ، يمتنع [تمنع] من درك البغية ، واصابة الحجة [المحجة] . لان المتوحد بقراءتها ، والمتفرد بفهم معانيها ، لا يباهي نفسه

ولا يغالب عقله .

والكتاب قد يفضل صاحبه ويرجح على واضعه بامور . منها : انه يؤخذ مع كل زمان على تفاوت الاعصار ، وبعد ما بين الامصار ، وذلك امر يستحيل في واضع الكتاب ، والمنازع بالمسئلة [المسألة] والجواب . وقد يذهب العالم ويبقى [وتبقى] كتبه ، ويفنى العقب ، ويبقى اثره ؛ ولولا ما رسمت لنا الاوائل في كتبها ، وخلدت من عجيب حكمها ، ودونت من انواع سيرها حتى شاهدنا بها ما غاب عنا ، وفتحنا بها المستغلق علينا ، فجمعنا الى قليلنا كثيرهم ، وادركنا ما لم تكن ندركه إلا بهم .

لقد خس حظنا من الحكمة ، وانقطع سببنا من المعرفة ، وقصرت الهمة ، وضعفت النية ، فاعتقم الرأي وماتت الخواطر ، ونبا العقل . واكثر من كتبهم نفعاً ، واحسن ما [مما] تكلموا به موقعاً ، كتب الله التي فيها الهدى ، والرحمة والاخبار عن كل شيء [و] عبرة وتصريف كل سيئة وحسنة .

فينبغي ان يكون سبيلنا ممن [في من] بعدنا كسبيل من قبلنا فينا . على انا قد وجدنا من العبرة اكثر مما وجدوا ، كما ان من بعدنا يجد من العبرة اكثر مما وجدنا . فما ينتظره العالم باظهار ما عنده ، والناس [والناسي؟] للحق من القيام بما يلزمه فقد امكن القول ، وصلح الدهر ، وخوى نجم التقية وهبت ريح العلماء وكسد الجهل والعمى ؛ وقامت سوق العلم والبيان .

وهذا الكتاب، ارشدك الله ، وان حسن في عيني . وحلا في صدري فلست آمن ان يعتريني فيه من الغلط ، ما يعتري الاب في ابنه . والشاعر في قريضه والذي دعاني الى وضعه ، مع اشفاقي منه ، وهيبتي لتصفحك له اني حين علمت ان الغالب على ارادتك ، والمستولي على مذهبك ، تقريب العالم، واقصاء الجاهل وانك متى قرأت كتابا ، او سمعت كلاما ، كنت من وراء ما فيه من نقص او فضل ، باتساع الفهم ، وصحة العلم ؛ وانك متى رأيت زللا غفرته وقومت صاحبه، ولم تقرعه به ، ولم تخرمه (?) له. ومتى رأيت صواباً ، اعلنته وزعيته فنعوت اليه ، واثنيت عليه ؛ ولاني حين امنت عقاب الاساءة [الاساءة] وثقت بثواب الاحسان ، كان ذلك موجباً لوضعه . ولم استكره نفسي عليه وصار

ذلك موجباً لنظمه ، وموجباً للتقرب به ، والسبب احق بالتفضيل من المسبب ؛ لان الفعل محمول على سببه ومضاف اليه وعيال عليه ومضمن [مضمون] به واحساني مد الله في عمرك في كتابي هذا ـ ان كنت محسناً ـ صغير في جنب احسانك ؛ اذ كنت المثير له من مراقده . والباعث له من مراقده . فلذلك صار اوفر النصيبين لك ، وامتن السببين مضافاً اليك . وان كنت قد قصرت عن الغاية فانا المضيع دونك . وان كنت قد بلغتها ففضلك [ففضلك] اظهر وحظك اوفر ، لاني لم انشط له إلّا بك ، ولا اعتمدت فيه إلّا عليك .

ولولا سوقك التي لاينفق فيها إلّا اقامة السنة ، واماتة البدعة ودفع الظلامة والنظر في صلاح الامة لكانت هذه السلعة باثرة وهذا الجلب مدفوعاً وهذا العلق خسيساً . فالحمد لله الذي عمر الدنيا بك واخذ لمظلومها على يديك وايد هذا الملك بيمينك . وصدق فراسة الامام فيك . وانك منزلة ارفع وايّ حالة احدممن ليس على ظهرها عالم إلّا وهو يحس [يحن] اليه او قد رحل اليه او قد صار الى كنفه وتحت جناحه . وليس على ظهرها ظالم إلّا وهو ينفيه [يتقيه] ولا مظلوم إلّا وهو يستعديه . ومن يقف على قدر ثواب من هذا قدره وهذه حاله ؟ وعندي ، مد الله في عمرك ، كتب سوى هذا الكتاب ؛ وليس يمنعني امن [من] ان اهديها اليك معاً ، إلّا ما اعرف من كثرة شغلك ، وكثرة ما يلزمك من التدبير في ليلك ونهارك .

والعلم ، وان كان حياة العقل كما ان العقل حياة الروح والروح حياة البدن فان حكمه حكم الماء ، وجميع الغذاء الذي اذا فضل عن مقدار الحاجة عاد ذلك ضرراً . وانما يسوغ الشراب ويستمرئ الطعام . الاول فالاول ؛ فكذلك العلم يجري مجراه وينهب منهبه . ومن شأن النفوس الملالة لما طال عليها وكثر عندها . فليس لنا ان نكون من الاعوان على ذلك ، ومن الجاهلين بما عليه طبائع البشر ؛ فان اقواهم ضعيف ، وانشطهم شؤوم [سؤوم] . وان كانت خلاتهم [خلاتهم] متفاوتة ، فان الضعف لهم شامل ، وعليهم غالب .

فاذا قرئ عليك ، ايدك الله ، هذا الكتاب التمسنا اوقات الحمام [الجمام] وساعات الفراغ بقدر مايمكن من ذلك وتتهيأ [ويتهيأ] والله الموفق والمهيىء له . ثم اتبعنا كل كتاب بما يليه ان شاء الله . وليست بحمد الله من باب الظفرة

[الطفرة ؟] والمداخلة ، ولا من باب الجوهر والعرض بل كلها في الكتاب والسنة ، وبجميع الامة اليها اعظم الحاجة. ثم نسئل [نسأل] الذي عرفنا فضلك ان يصل حبلنا بحبلك، وان يجعلنا من صالحي اعوانك المستمعين منك والناظرين معك وان يحسن في عينك ، ويزين في سمعك ، ما يقربنا به اليك والتمسنا الدنو منك انه قريب مجيب فعال لما يريد . اطال الله بقاءك واتم نعمته عليك . وكرامته لك في الدنيا والآخرة .

تمت الرسالة بعون الله تعالى ومنه وتوفيقه والله الهادي والموفق للصواب والحمد لله اولا واخرا ؛ وصلواته على سيدنا محمد نبيه وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين وسلم تسليما كثيراً الى يوم الدين . آمين آمين آمين .

القيالة عند العرب

La Vassalité chez les Arabes.

كان لملوك اليمن في العهد السابق الاسلام بسطة عظيمة وامتداد لملكهم عظمه بعض الاخباريين بعد ذلك حتى اخرجوه عن حقيقة اتساعه وكان لملكهم الكبير سطوة على جميع ملوك المخاليف والمحاجر اي انه كان في الديار اليمانية ملك عظيم هو الاعلى فيهم وتحت امرة ملوك صغار يعرفون بالاقيال واحدهم « القيل » وتعرف امارته « بالقيالة » . ولما انتقلت غسان الى ربوع الشام ولخم الى ارجاء العراق لم تفارق القيالة رؤساءهم فان غسان دانت لملوك الرومان، ولخم لاكاسرة الفرس الا انهم ابوا ان يتسموا بالقيول لما في هذا اللقب من معنى الخضوع لملك اعظم منهم . ولذا تسموا بالملوك — اما انهم لم يقبلوا لانفسهم ان يتسموا بالقيول فظاهر من كلام جميع الاخباريين الذين لم يلقبوهم بهذا اللقب مرة واحدة اذ كان ذلك من باب الحط من قدرهم . واما انهم عرفوا بالملوك فظاهر من نصوص جميع المؤرخين كبيرهم وصغيرهم . على ان الرومان والفرس لم يعترفوا لهم بالملوكية ؛ اذ لا نرى لذلك اثراً في ما وصل الينا من انبائهم المدونة والذي كانوا يعترفون به لهم « الملوكية الثانوية » اي القيالة وهي ملوكيتهم على العرب دون غيرهم ممن كان في البلاد التي كانت في ادارتهم ومن كان كذلك يعرف عند الفرنسيين باسم Roi vassal .